

“من الحرية والمخاطرة فى العملية الإبداعية (1) ” ( 2 من 3 )



[yehiatrakhawy@hotmail.com](mailto:yehiatrakhawy@hotmail.com)

نشرة "الإنسان" 2020/03/21

السنة الثانية عشرة - العدد: 4585

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

### بين حرية وحرية

الفصل بين الحرية الضرورية لتحريك عملية الإبداع، والحرية اللازمة لتسويق ناتجه ليست مسألة نظرية. إن الاهتمام بالأخيرة دون الأولى (أو أكثر من الأولى) يمكن أن يترتب عليه مضاعفات كثيرة، حتى لو بدت كأنها إنجازات بشكل أو بآخر. نورد بعض هذه المضاعفات - كأمثلة- فيما يلي:

لو أن حرية التعبير أصبحت كاملة (مائة بالمائة)، وهذا مستحيل حتى فى أكثر الدول زعما بإطلاق الحريات) مع قصور فى توفير حرية العملية الإبداعية، فإن الاحتمال الأغلب هو الحصول على قدر هائل من الأصوات والكتابات من أقصى أطراف الاستقطاب دون إضافة حقيقية تدل على معنى الحرية التى تخدم الإبداع، وترسم الطريق إلى "الآتى".

ذلك أنه على الرغم من احتمال السماح غير المحدود بحرية التعبير (والنشر) أحيانا (من الناحية الرسمية، أو القانونية، أو الحقوق المعلنة) إلا أن ذلك لا يمنع من قيام مؤسسات أخرى بتشويه هذه المساحة من الحرية، أو توجيهها الوجهة التى تريدها دون إدراك كامل من جانب المبدع يحميه من مغبة ذلك. بل إنه فى كثير من الأحيان تقوم هذه المؤسسات باختلاق قضايا زائفة، أو فرعية، تغرى المبدع بخوضها، وهو يتصور أنه يصارع من أجل حريته، فى حين أنه لا يخدم إلا تشويهها، وتزييفها. (تذكر مثلا سماح السينما الأمريكية بشجب حرب فيتنام لتفريغ طاقة معارضيه، فتستمر الحرب أطول).

ثم إن ما يجرى قصدا أو مصادفة من تصنيع غرائز مانعة للحرية مسايرة لما يغلب عند القطيع البشرى فى وقت بذاته: ما هو إلا مواكبة للحركة المانعة للحرية برغم ما تحمل من أسماء تغرى بأنها تنتمى إلى ما هو حرية وتحرر (مثل منظومة العقل الطاغى، ومنظومة العلم المؤسسى، ومنظومة الديمقراطية الإعلامية ومنظومة احتكار تفسير الدين، ومنظومة الطب التقليدي).

الفصل بين الحرية الضرورية لتحريك عملية الإبداع، والحرية اللازمة لتسويق ناتجه ليست مسألة نظرية.

لو أن حرية التعبير أصبحت كاملة مع قصور فى توفير حرية العملية الإبداعية، فإن الاحتمال الأغلب هو الحصول على قدر هائل من الأصوات والكتابات من أقصى أطراف الاستقطاب دون إضافة حقيقية تدل على معنى الحرية التى تخدم الإبداع، وترسم الطريق إلى "الآتى".

ذلك أنه على الرغم من احتمال السماح غير المحدود بحرية التعبير (والنشر) أحيانا إلا أن ذلك لا يمنع من قيام مؤسسات أخرى بتشويه هذه المساحة من الحرية، أو توجيهها الوجهة التى تريدها دون إدراك كامل من جانب المبدع يحميه من مغبة ذلك.

إن ما يجرى قصدا أو مصادفة من تصنيع غرائز مانعة للحرية مسايرة لما يغلب عند القطيع البشرى فى وقت بذاته: ما هو إلا مواكبة للحركة المانعة للحرية برغم ما تحمل من أسماء تغرى بأنها تنتمى إلى ما هو حرية وتحرر

أخلص من كل ذلك إلى القول بأن التركيز على حرية الخارج هذه قد يترتب عليها الانسحاق وراء الاكتفاء بالتركيز على المتاح من الحرية، دون اختبار يطمئن إن كان هذا المستوى هو حقيقة يمثل الحرية، أم أنه المستوى الأسطح الخالي من المغامرة الحقيقية، المكتفى بفرحة زعم الانطلاق، دون صراع المعوقات وقفز الحواجز اللازمين لجوهر الإبداع.

### ضرورات لتوفير حرية إبداع حقيقية

: أولاً: مساحة كافية لاستيعاب حركية الوعي

الحديث عن المساحة التي يتحرك في رحابها الوعي البشري، غير الحديث عن عمق الوعي أو حيويته، برغم التداخل الضروري. مجرد ذكر لفظ "مساحة" في هذا المقام يحتاج وقفة، المساحة ليست سعة مكان بقدر ما هي عدد من الوحدات (المشتبكية، والجزئية) مضروب في عدد من احتمالات الترابطات. (تصل إلى البلايين في حالة الإنسان، إذا اكتفينا بمشتبكات دماغه فحسب)، والإبداع يلزمه أكبر قدر من هذه المساحة المرنة الخلاقة.

ثانياً: تنشيط لأكثر من مستوى من "الوعي" معا

لا جدوى من رحابة المساحة (بالمعنى السابق) لتسع حركية مستويات الوعي مهما بلغت، إلا إذا تم التنسيق المناسب للحركة فيها. الحركة في المساحة المتاحة لا تسير عرضاً في رحابة امتدادها فحسب، وإنما هي تغوص طولاً إلى أغوارها الحاملة للتاريخ (الفردى، والنوعى)، أعنى إلى مستويات الوعي البشرى المرتبة هيراركيًا حاملة تاريخ الحياة برمتها، مستعيدة تاريخ النمو الفردى في نفس الوقت.

حين نتحدث عن مستويات الوعي لا نقصد ما يسمى الشعور في مقابل اللاشعور، ولا حتى اللاشعور الجمعي. الإنسان منتظم دماغه خاصة، ووجوده عامة، في مستويات لها أسماء مختلفة حسب المدرسة النفسية أو العصبية أو الفلسفية التركيبية التي تصفها. هذه المستويات يمكن أن ينظر إليها باعتبارها حالات ذات (ذوات) متنوعة، كما يمكن أن ينظر إليها باعتبارها منظومات دالة على مرحلة بذاتها من مراحل التطور الحيوي، وأيضا النمو الفردى. كل منظومة (مستوى) من هذه المستويات هي تركيبة كيانية متكاملة قائمة بذاتها، لكنها منتظمة -هيراركيًا- مع سائر المنظومات الأخرى، الأقدم والأحدث.

في لحظة بذاتها يقوم أحد مستويات الوعي بالتفوق والقيادة (وعى اليقظة الظاهر هو المتقدم البادى عادة). في حين تكمن مستويات الوعي الأخرى حتى يتغير الموقف والموقع والوقت (أثناء النوم مثلا) فتنتقل القيادة إلى مستوى آخر، وهكذا، وهذا التبادل يدل على سلامة وكفاءة ومرونة التركيب البشري، وهو يتيح فرصة للتنظيم والأداء الراتب للعمل العادى والتكيف معا.

في حالة الإبداع، تزيد الكفاءة والمرونة حتى يتم السماح بتنشيط أكثر من مستوى معا في نفس

أن التركيز على حرية الخارج هذه قد يترتب عليها الانسحاق وراء الاكتفاء بالتركيز على المتاح من الحرية، دون اختبار يطمئن إن كان هذا المستوى هو حقيقة يمثل الحرية، أم أنه المستوى الأسطح الخالي من المغامرة الحقيقية.

الحديث عن المساحة التي يتحرك في رحابها الوعي البشري، غير الحديث عن عمق الوعي أو حيويته، برغم التداخل الضروري.

لا جدوى من رحابة المساحة (بالمعنى السابق) لتسع حركية مستويات الوعي مهما بلغت، إلا إذا تم التنسيق المناسب للحركة فيها.

الحركة في المساحة المتاحة لا تسير عرضاً في رحابة امتدادها فحسب، وإنما هي تغوص طولاً إلى أغوارها الحاملة للتاريخ (الفردى، والنوعى)، أعنى إلى مستويات الوعي البشرى المرتبة هيراركيًا حاملة تاريخ الحياة برمتها، مستعيدة تاريخ النمو الفردى في نفس الوقت.

في لحظة بذاتها يقوم أحد مستويات الوعي بالتفوق والقيادة (وعى اليقظة الظاهر هو المتقدم البادى عادة). في حين تكمن مستويات الوعي الأخرى حتى يتغير الموقف والموقع والوقت (أثناء النوم مثلا) فتنتقل القيادة إلى مستوى آخر، وهكذا

الوقت، هذا ما يحدث أيضا في حالة الجنون (أو بعض الجنون على الأقل)، لكن بصورة سلبية، ونتاج سلبي.

التربية المهيئة لطلاقة الإبداع هي التي تسمح بطرح الأسئلة بنفس القدر، وأحيانا أكثر، من ذلك القدر الذي تعطى به إجابات حاسمة، وهي التربية التي تحترم الجهل والمجهول، بما في ذلك الأحلام والشطح الغامض.

### ثالثا: القبول بدرجة من المخاطرة

لا يوجد إبداع بدون مخاطرة، حتى في الظروف التي وفرت المساحة الرحبة، والسماح لأكثر من مستوى من الوعي معا، حتى في تلك الظروف، فإن الإبداع الحقيقي لا يتم إلا من خلال درجة ما من المخاطرة. تأتي المخاطرة من مصدرين أساسيين:

**الأول:** إن عملية الإبداع هي خطوة إلى مجهول حتى لو بدأت من معلوم هادف فكثيرا ما تبدأ العملية في اتجاه بذاته، لتحقيق فكرة ما، أو للكشف عن منطقة ما، لكن المبدع الحقيقي عادة ما لا يواصل المسير في نفس الاتجاه الذي بدأ به ليحقق ما أراد. إنه عرضة دائما (ما دامت المساحة رحبة، و"الوعي نشطا") أن يجد نفسه في طريق لم يقصده، سائرا إلى مآل لا يعرفه.

**الثاني:** الإبداع هو مخاطرة نحو تجربة مرعبة، وهو في نفس الوقت منزلق إلى جنون محتمل. لا يوجد مبدع - لحظة الإبداع- مهما تماسكت شخصيته، وترسخت قواعده، إلا وهو يخاطر بما لا يعرف، بما في ذلك احتمال خيبة الجنون، حتى ولو كان ذلك للحظات محدودة، في الإبداع الأصيل لا يوجد سقف للمخاطرة، حيث لا توجد قيم محظورة أصلا.

إن الأخذ بالمخاطرة في مراحل العملية الإبداعية التي هي شديدة الخصوصية ليس له سقف. المخاطرة هنا تقتحم أي محذور من أي نوع مهما تقدس: دينيا، أو أيديولوجيا، أو علميا، أو عرفيا، أو تقاليدا، أو محرمات، أو وعيا عاما، أو رأيا غالبا، أو ديمقراطية أو قانونا. المبدأ الأساسي في هذا الموقف هو أن "كل شيء قابل للتناول، وكل مسلمة قابلة للمراجعة، وكل مقدس قابل للفحص والنقد"، إذا انعدمت المخاطرة بإطلاق، مات الإبداع، أو تشوه على أحسن الفروض برقيب أخطر وأكثر تحفزا. فقد يكون رقبيا جاهزا قديما معنا في داخلنا منذ الولادة فيما هو جينات ووراثة، وقد يكون رقبيا لحق بنا منذ بداية التنشئة، وهو يمسك بيده المعجم القديم الثابت لتحديد المسموح من الممنوع، وقد يكون رقبيا من واقع سلطة دينية، (وليس الدين في ذاته). سلطة تبادت في التفسير والتجيم والوصاية، بما يعوق لا بما يخلق. وقد يكون رقبيا معنا (داخليا أيضا، وليس فقط في الخارج) من قبل أيديولوجية شاعت وتمادت، حتى أصبحت من المسلمات، باعتبارها النهاية القصوي. (مثل الماركسية حول منتصف القرن العشرين، أو العولمة المأمركة بديمقراطية موصى عليها حالا) وقد يكون رقبيا مؤلفا من كل ذلك.

المصيبة في شأن كل هؤلاء الرقباء هي أننا نحن الذي نعينهم في الداخل، بل إننا كثيرا ما

في حالة الإبداع، تزيد الكفاءة والمرونة حتى يتم السماح بتنشيط أكثر من مستوى معا في نفس الوقت، هذا ما يحدث أيضا في حالة الجنون (أو بعض الجنون على الأقل)، لكن بصورة سلبية، ونتاج سلبي.

لا يوجد إبداع بدون مخاطرة، حتى في الظروف التي وفرت المساحة الرحبة، والسماح لأكثر من مستوى من الوعي معا

إن عملية الإبداع هي خطوة إلى مجهول حتى لو بدأت من معلوم هادف فكثيرا ما تبدأ العملية في اتجاه بذاته، لتحقيق فكرة ما، أو للكشف عن منطقة ما

الإبداع هو مخاطرة نحو تجربة مرعبة، وهو في نفس الوقت منزلق إلى جنون محتمل.

لا يوجد مبدع - لحظة الإبداع- مهما تماسكت شخصيته، وترسخت قواعده، إلا وهو يخاطر بما لا يعرف، بما في ذلك احتمال خيبة الجنون، حتى ولو كان ذلك للحظات محدودة

. المبدأ الأساسي في هذا الموقف هو أن "كل شيء قابل للتناول، وكل مسلمة قابلة للمراجعة، وكل مقدس قابل للفحص والنقد"، إذا انعدمت المخاطرة بإطلاق، مات الإبداع، أو تشوه على أحسن الفروض برقيب أخطر وأكثر تحفزا

نحتفل بمراسم تسلمهم صولجان الرقابة. المصيبة الأخرى هي أننا - لذلك، ولغير ذلك- لا نحاول مقاومة هؤلاء الرقباء أو مواجهتهم، ناهيك عن مخالفتهم، أو تحجيمهم (اللهم إلا في طرفة إبداعية غير مأمونة العواقب) الرقابة في هذا المستوى الداخلى أشد وأخطر بل إن رقابة غير مقدسة قد تعين من قبل المنظومة التى تسمى "الحرية" حين تصبح قيمة مقدسة، لا حركية نابضة.

#### رابعاً: حركية مناسبة ذات توجه جدلى ضام

بعد الطمأنينة إلى المساحة، والسماح بالتنشيط لمستويات الوعى معاً، والأخذ بالمخاطرة بكل أبعادها، لا يكون الإبداع إبداعاً إلا إذا اتصف بحركية نشطة، لا تلتزم باتجاه بذاته، اللهم إلا المثابرة حتى تمام التوجه (وليس تحقيق هدف محدد مسبقاً) إن مجرد الحركة قد تمثل رعباً يفسر بما جاء عن المخاطرة فى الفقرة السابقة، يكون الأمر أكثر صدقاً وأخطر إرعاباً حين تكون الحركة طليقة نسبياً (لا كلياً).

لا إبداع بدون حركة، ولكن ليست كل حركة إبداعاً. ثمة حركة فى المحل، وثمة حركة مشتته، وثمة حركة زائفة، وثمة حركة ظاهرية فحسب.

الحركة التى تجعل التنشيط فى المساحة "معاً" إبداعاً هى حركة ضامة جدلية. إنها حركة تحتوى الأضداد دون تسوية، وتلملم الشتات دون محاولة الرجوع إلى التنظيم القديم مهما بدا أكثر أمناً. فرط الحركة قد يكون - فى نهاية النهاية - ضد الإبداع، وضبط السرعة ليس عملية سهلة، أو جاهزة، أو ممكنة طول الوقت.

الرقيب على هذا المستوى هو قريب من الرقيب المختص بالتحذير من المخاطرة (الفترة السابقة)، ذلك أنه عادة ما يبالح فى مخاطر الحركة (سواء من الإفراط فيها، أو من العجز عن ضبط توجهاتها). هذا الرقيب يحد من حركية الإبداع ملزماً بقواعد "تهدى اللعب" كما يقولون. (المقصود هنا بالإلزام هو الإلزام الداخلى المسمى فى العادة "الالتزام").

#### خامساً: القدرة على التناوب بين الكمون والبسط

العملية الإبداعية ليست محدودة بوقت بذاته، إن لم تتم فيه ألغيت لتأخرها عن الموعد مثلاً، قد يخضع الناتج الإبداعى لاحتمال تحديد زمن بذاته لإنجاز ما اتفق عليه فى عقد ما، أو التزام ما، أما العملية الإبداعية نفسها فهى مطلقة متراوحة فى الظهور والاختفاء، بين الكمون والإعلان.

لكى تكون الحرية التى نعنيها هنا متوافرة فعلاً للعملية الإبداعية دون ربط مباشر بما هو إنجاز إبداعى محدد، علينا أن نحترم الكمون بقدر ما نحترم الظهور، كما أنه علينا ألا نطمئن طويلاً إلى كمون طال، حتى لا ينقلب إلى نشاط توقف. التراوح بين الكمون والنشاط كصفة لازمة لحركية الإبداع ينتمى إلى فرض يربط بين "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع" الكمون جزء لا يتجزأ من تخليق الإبداع إذ يسمح بقدر من حرية التخمر والتوليف الداخلى، مثلما يهيبى للبسط فى طور آخر.

لا يكون الإبداع إبداعاً إلا إذا اتصف بحركية نشطة، لا تلتزم باتجاه بذاته، اللهم إلا المثابرة حتى تمام التوجه (وليس تحقيق هدف محدد مسبقاً)

لا إبداع بدون حركة، ولكن ليست كل حركة إبداعاً. ثمة حركة فى المحل، وثمة حركة مشتته، وثمة حركة زائفة، وثمة حركة ظاهرية فحسب.

الحركة التى تجعل التنشيط فى المساحة "معاً" إبداعاً هى حركة ضامة جدلية. إنها حركة تحتوى الأضداد دون تسوية، وتلملم الشتات دون محاولة الرجوع إلى التنظيم القديم مهما بدا أكثر أمناً

لكى تكون الحرية التى نعنيها هنا متوافرة فعلاً للعملية الإبداعية دون ربط مباشر بما هو إنجاز إبداعى محدد، علينا أن نحترم الكمون بقدر ما نحترم الظهور، كما أنه علينا ألا نطمئن طويلاً إلى كمون طال، حتى لا ينقلب إلى نشاط توقف.

التراوح بين الكمون والنشاط كصفة لازمة لحركية الإبداع ينتمى إلى فرض يربط بين "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع"

الكمون جزء لا يتجزأ من تخليق الإبداع إذ يسمح بقدر من حرية التخمر والتوليف الداخلى، مثلما يهيبى للبسط فى طور آخر.

مثلاً يهين للبط في طور آخر. لكي يتحقق إبداع لا يمكن تفضيل طور عن طور حيث يكمل أحدهما الآخر. إن من لا يعطى لحركية العملية الإبداعية حقها في الكمون إنما يفرض عليها قهراً قد يشوهها أو يسطحها بشكل أو بآخر، كذلك إذا اقتضت العملية الإبداعية على مرحلة الكمون فهي إبداع يتباطأ حتى يصمت، أو على أحسن الفروض إبداع مؤجل إلى أجل غير مسمى.

- [1] أصل المقال كان بعنوان: "تعليم تلقيني.. وسلطات قامعة عن الحرية والإبداع والقهر الداخلي" مجلة وجهات نظر - نوفمبر -1993 وهذا الجزء الثاني ثم اختصاره وتحديثه بشكل جذري للأسف.

إن من لا يعطى لحركية العملية الإبداعية حقها في الكمون إنما يفرض عليها قهراً قد يشوهها أو يسطحها بشكل أو بآخر، كذلك إذا اقتضت العملية الإبداعية على مرحلة الكمون فهي إبداع يتباطأ حتى يصمت، أو على أحسن الفروض إبداع مؤجل إلى أجل غير مسمى.

ارتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD210320.pdf>

\*\*\* \*\*

## شبكة العلوم النفسية العربية

ندوة تعاون عربي رقياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2020 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعها التاسعة عشرة وتدخل عامها العشرون من التأسيس

19 عاماً من الضج... 17 عاماً من التواطئ "

( التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13 )

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

## موسسة العلوم النفسية العربية

معاً... نذهب أبعد

اشتراكات العضوية بموسسة العلوم النفسية العربية للعام 2020

[http://www.arabpsyfound.com/index.php?id\\_category=36&controller=category&id\\_lang=3](http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_category=36&controller=category&id_lang=3)

اشتراكات عضوية مدفوعة لدعم المؤسسة

اشتراكات العضوية بالدفع الإلكتروني

1 - عضوية "الشريك الفخري الماسي المميز"

[http://www.arabpsyfound.com/index.php?id\\_product=275&controller=product&id\\_lang=3](http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=275&controller=product&id_lang=3)

2 - عضوية "الشريك الفخري الماسي"

[http://www.arabpsyfound.com/index.php?id\\_product=116&controller=product&id\\_lang=3](http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=116&controller=product&id_lang=3)

3 - عضوية "الشريك الشرفي الذهبي"

[http://www.arabpsyfound.com/index.php?id\\_product=117&controller=product&id\\_lang=3](http://www.arabpsyfound.com/index.php?id_product=117&controller=product&id_lang=3)

- اشتراكات العضوية بالتحويل البنكي ( بعد اختيار نوعية العضوية 1 - 2 - 3 )

مرفق رابط مستند الصوية البنكية للموسسة

[www.arabpsynet.com/APF-IBAN.pdf](http://www.arabpsynet.com/APF-IBAN.pdf)

- اشتراكات العضوية بالتحويل عن طريق الويسترن يونيون ( بعد اختيار نوعية العضوية 1 - 2 - 3 )

Dr. Jamel TURKY ( Sfax - TUNISIA )

ARABPSYFOUND President